الاعتذار في شعر ابن الجهم

بقلم الدكتور
عبد الرحمن محمد هيبة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاعتذار فى شعر ابن الجهم

بقلم الدكتور

عبد الرحمن محمد هيبة

الوشاية جانب سلوكى قبيح ، تطل نوازعه بصورة واضحة بين الندماء وذوى الحظوة ، فى رحاب الخلفاء وأرباب الجاه ، إذ يحرص الوشاة - بباعث الغيرة أو الحسد - على بث الأحقاد ، باختلاق الأكاذيب تارة ، وإفشاء المكروه تارة أخرى .

وأمام هذه أو تلك تحمل سطوة الملك على الإنتقام ، بالإلقاء فى غياهب السجون ، أوالوعيد المفزع . وفى مواجهة بطش الملك لا يملك المفترى عليهم ، ومن عثرت بهم نزوة أو هفوة ، إلا الحرص على استلال الموجدة بالاعتذار .

وكلمة « الاعتذار قد تكون من المحو ، كأنك محوت آثار الموجدة ، وقد تكون من الانقطاع ، كأنك قطعت الرجل عما أمسك فى قلبه من الموجدة ، وقد تكون من الحجز والمنع ، فمعنى اعتذر الرجل : احتجز ، وعذرته : جعلت له بقبول ذلك منه حاجزا بينه وبين العقوبة والعتب عليه »[1] .

وليس يكاد أن يكون الاعتذار من الرجل إلى صاحبه إلا وهو برىء

---

(١) انظر العفو والاعتذار لحمد بن عمران العبدى ١ / ٢٨ تحقيق عبد القدوس أبو صالح ط الرياض ١٩٨١ م . العمدة ٢/ ١٨٠ تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد - بيروت .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من الذنب الذى قرف به ، ألا نسمع إلى قول « أمية بن أبى الصلت ، حين احتضر : لا برىء فأعتذر ، ولا قوى فأنتصر[١] . إلا أنه توسع فيه فاعتذر البرىء وغيره .

وهو غرض شعرى طريقه إلى الشعر الجاهلى مذ قصد الشعراء بلاط ذوى الجاه واليسار بمدائحهم ، بغية المنالة والكسب . ولم يخل عصر أدبى من شاعر أو أكثر اعتذر عما تورط فيه من إساءة ، أو عما نسب إليه زوراً وبهتاناً .

وقصيدة الاعتذار تدور أكثر معانيها عادة حول تلطف الشاعر فى الاحتجاج على براءته مما نسب إليه ، واستمالة قلب المعتذر إليه بشتى ضروب الاستمالة .

وقد برع ثلة من شعراء العربية فى هذا الفن ، وأبدوا فيه تفننا يدل على ملكات فنية مواتية ؛ ومن ثم صاروا أعلامه المبرزين فيه .

وعلى بن الجهم أحد الفرسان المعلمين فى ميدان الاعتذار ، إلا أن شهرة النابغة وعدى بن زيد العبادى حالت بين النقاد والباحثين وبين وقفة متأنية مع اعتذاراته تضعه فى مكانه الصحيح بين شعراء الاعتذار .

صلة على بن الجهم بخلفاء بنى العباس :

خلق « ابن الجهم » شاعراً ، شهره شعره ، وأفسح له فى دور الخلافة العباسية ، إذ ترامت أخبار شاعريته المبدعة إلى مسامع « المأمون » فطرب لما سمع من شعره . ومدح « المعتصم » . و « الواثق » ، وصحب « المتوكل » صحبة طويلة[٢] .

---

(١) العفو والاعتذار ١ / ٤٩ .

(٢) انظر : معجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٨٦ ط بيروت .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأخباره مع « المتوكل » تبدأ منذ آلت إليه خلافة المسلمين سنة ٢٣٢ هـ ؛ إذ أمر بترك القطر والمباحثة في الجدال، والترك لما كان عليه الناس في « المأمون » و « المعتصم » و « الواثق » ، وأمر الناس بالتسليم ، وأمر شيوخ المحدثين بالتحديث ، وإظهار السنة والجماعة، ونهى عن الكلام في القرآن الكريم[١] .

وكان مذهب « ابن الجهم » مذهب أهل الحديث الذين يقفون عند ظاهر الكتاب والسنة ، فيتشدد في تسننه ، وكان إمام أهل الحديث في عصره الإمام « أحمد بن حنبل » فمال إليه « علي بن الجهم » ، وكان يتردد عليه . ويسأله ويروي عنه ، حتى عد من الطبقة الأولى من طبقات الحنابلة ممن روى عن الإمام أحمد[٢] .

فاتفق « ابن الجهم » و « المتوكل » في المذهب والرأي والغلو في التسنن ؛ لذا وجد في (المتوكل) الإمام المنتظر، وأبدى ضروبا من الإعجاب والرضا بخطته في تسيير أمور الملك ، والقضاء على الفتنة القائمة بعد القول بخلق القرآن الكريم . هذا الإعجاب جعله يزجي كثيرا من مدائحه في (المتوكل)، منها - على سبيل المثال - مدحة قالها عقب مبايعته خليفة للمسلمين يقول فيها[٣] :

قام وأهل الأرض في رجفة ... يخبط فيها المقبل المدبر
في فتنة عمياء لا نارها ... تخبو ولا موقدها يفتر
والدين قد أشفى وأنصاره ... أيدى سبا موعدها الحشر

إلى أن يقول :

الردة الأولى ثنى أهلها ... حزم أبي بكر ولم يكفروا
وهذه أنت تلافيتها ... فعاد ما قد كاد لا يذكر

(١) راجع : مروج الذهب ٤/٨١ . ط دار الفكر ، تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٤ . ط بيروت .
(٢) انظر : مقدمة ديوان علي بن الجهم ص ٢٦ لخليل مردم .
(٣) الديوان ص ٧٣ ، ٧٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إذا استمر سبع سنوات - تقريبا - يغشى مجالسه، يمدحه وينادمه ويتحفه بأطيب الحديث وأمتع السمر، فقربه «المتوكل» منه، وأفسح له فى صدر مجالسه، وأطلعه على مالم يطلع عليه سواه من أسرار القصر.

محنة ابن الجهم :

لم يسلم «ابن الجهم» من عواقب حياة المنادمة التى جرت عليه وبالا؛ إذ تحول قلب «المتوكل» عنه، وأقصاه عن مجلسه، ثم أمر بحبسه.

وأسباب هذا التحول متعددة، فى مقدمتها لسانه «وكان يضع لسانه حيث يشاء وكان هجاء»[1]. وكان فى لسانه فضل قل من سلم معه»[2]. وكان قد دأب على هجاء ندمان المتوكل وخاصته وبعض أمرائه وقواده، فقد أولع بهجاء آل طاهر، يهجوهم وينسبهم إلى الرفض[3]. كما هجا بختيشوع بن جبريل «طبيب المتوكل»[4]. وهجا النصارى جميعا[5] وهجا «على بن يحيى المنجم» نديم المتوكل وأحد خواصه المقربين إليه.

فأنار بذلك موجدة هؤلاء جميعا، وهم الذين انطوت قلوبهم على مستكنة؛ لما يحظى به من مكانة أثيرة لدى المتوكل.

كما كان «ابن الجهم» ينحو منحى مروان بن أبى حفصه فى هجاء آل أبى طالب، وذمهم، والإغراء بهم، وهجاء الشيعة[6]، مما أغرى به جماعة من الشعراء، من بينهم «البحترى» و«مروان بن أبى الجنوب» وغيرهما.

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣١٩ ط دار المعارف.
(٢) مروج الذهب ٤ / ١١٤.
(٣) انظر: الأغانى ١٠ / ٢٠٥ ط بيروت.
(٤) ذاته ١٠ / ٢٠٦.
(٥) انظر: ديوانه ص ١٩٢.
(٦) الأغانى ١٠ / ٢٠٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كما كان تسننه سببا فى نفور عدد من الكتاب منه ؛ لأنه رجل من أهل السنة وهم روافض[١] . فكثر شانئوه الذين انطوت قلوبهم على بغضه ، والرغبة فى الانتقام منه ، فوشوا به لدى المتوكل ، وأشاعوا عنه أنه يجمش[٢] خدمه ويغمزهم ، وأنه كثير الطعن على الخليفة ، والعيب له ، والإزراء على أخلاقه[٣] .

يضاف إلى ذلك كله ما اتصف به (المتوكل) من سرعة الغضب ، وكثرة النغمة على حاشيته ، حتى إنه لم يسلم من غضبه أحد منهم ، وكان قد ضاق بوشايات ابن الجهم ، ذرعا (لأنه كان كثير السعاية إليه بندمائه والذكر لهم بالقبيح عنده ، وإذ خلا به عرفه أنه يعيبونه ويثلبونه وينتقصونه)[٤] ، فقرر التخلص منه لتبدأ حلقات المحنة .

منهج على بن الجهم فى الاعتذار :

هو شاعر ملك عليه الشعر أقطار نفسه ، فوجد فيه المتنفس الذى يودعه أناته الحزينة ونبض قلبه المكلوم ، فأرسل من محبسه ـ فى إباء ـ قصائد الاستعطاف ، يستميل بها قلب (المتوكل) ، ويحتج على براءته مما نسب إليه ، تسعفه قوة بيانه ، ونصاعة حجته .

وأول ما قاله وهو فى الحبس قصيدة بعث بها إلى أخيه ـ ليوصلها إلى الخليفة[٥] ـ يبدى فيها ضروبا من يقين المؤمن الذى لا تعصف به المحن ، فيبقى ثابت الجنان ، رابط الجأش ، لا تلين له قناة ، مطلعها[٦] :

توكلنا على رب السماء ... وسلمنا لأسباب القضاء

---

(١) ذاته ١٠ / ٢٢٠ .
(٢) التجميش : المنازلة .
(٣) الأغانى ١٠ / ٢٠٨ .
(٤) ذاته ١٠/ ٢٠٥ .
(٥) ذاته ١٠/ ٢١٨ .
(٦) الديوان ص ٨١ وما يليها .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ووطنا على غير الليالى نفوسا ساءت بعد الإباء
وأفنية الملوك محجبات وباب الله مبذول الفناء
فما أرجو سواه لكشف ضرى ولم أفزع إلى غير الدعاء

والمطلع ملائم لما يقصد، دال عليه، وتلك براعة من الشاعر، وإسناد الأفعال: توكل، سلم، وطن، إلى نا الفاعلين يشير إلى اعتداد بالنفس بلغ مداه، والفعل (وطن) يومىء إلى أن الصبر فى مواجهة المحن خلق صار جزءا من طباع آل الجهم. ولا يخفى ما للقصر فى البيت الأخير من ظلال إيمانية وارفة وقته هجير الفزع إلى غير الله.

ولم ينس وهو فى غمار المحنة يصلى نارها أن يفخر بنفسه وأهله:

حلبنا الدهر أشطره ومرت بنا عقب الشدائد والرخاء
فلم نأسف على دنيا تولت ولم نسبق إلى حسن العزاء
ولم ندع الحياء لمس ضر وبعض الضر يذهب بالحياء
وجربنا وجرب أولونا فلا شىء أعز من الوفاء

فهو وأهله خبروا الدهر، وذاقوا حلوه ومره، فلم تبطرهم نعمة، ولم ترهقهم ذلة، وقوله (فلم نأسف على دنيا تولت) لمحة ذكية، فهو ليس أسفا لفوات دنيا لحتها وسداها هبات (المتوكل) وشهود مجالسه، فتلك مفاتن تأخذ لب غيره. وقد أجاد فى قوله: (ولم ندع الحياء لمس ضر) بتنكير (ضر) أى ضر مهما كان جسيما، أما سواهم فيأخذ بعض الضر بالإبهم.

ثم يحذر أخاه أناسا يتلونون لكل موقف تلون الحرباء، فهاهم ينصرفون عنه حين قلاه (المتوكل)، وقد كانوا فى إبان النعمة إخوانا مصافين:

توق الناس يا ابن أبى وأمى فهم تبع المخافة والرجاء
ولا يغررك من وغد إخاء لأمر ما غدا حسن الإخاء
ألم تر مظهرين على غشا وهم بالأمس إخوان الصفاء!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بليت بنكبة فقدوا وراحوا على أشد أسباب البلاء
أبت أخطارهم أن ينصرونى بمال أو بجاه أو براء(١)
وخافوا أن يقال لهم : خذلتم صديقا فادعوا قدم الجفاء

ثم يصب جام غضبه على الذين تضافروا على النيل منه ، والكيد له ، فيهجوهم هجاء مقذعا :

تضافرت الروافض والنصارى وأهل الاعتزال على هجائى(٢)
إذا ما عد مثلهم رجالا فما فضل الرجال على النساء !
إذا سميتهم للناس قالوا : أولئك شر من تحت السماء

ثم يتسلل - فى لباقة - إلى قلب (المتوكل) قائلا :

أنا المتوكلى هوى ورأيا وما بالواثقية من خفاء
وما حبس الخليفة لى بعار وليس بمؤيس منه التنائى

فهو لم يصف ما يعانيه فى سجنه من ضروب الإهانات والحرمان ، ولم يشك خوفا أو قلقا كما يفعل من فى مثل موقفه ، بل نسب نفسه إلى (المتوكل)، معلنا أنه يصفيه وده ، ويرى رأيه ، وهذه التفاتة لطيفة منه ، وجاء قوله : (وما بالواثقية من خفاء) معلنا عن سر تعلق قلبه بالمتوكل ، ومو دوره فى القضاء على فتنة القول بخلق القرآن ، التى أجج (الواثق ، ضرامها ، لذا لم يجد غضاضة فى حبس الخليفة إياه ، على الرغم من تحول قلبه عنه . والبيتان ضمنا معنى تاما يؤذن بأنه الغاية والمقصد والنهاية .

---

(١) الرأى .

(٢) أراد بالنصارى : بختيشوع طبيب المتوكل ، وأهل الاعتزال : على بن يحيى المنجم . وذهب ابن المعتز إلى أنه أراد بالروافض : آل طاهر ، انظر : طبقات الشعراء ص ١٥١ ، أما ابن أبى الحديد ، فيرى أن المراد بالروافض : نجاح بن سلمة . انظر شرح نهج البلاغة ١/٢٦٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد رق له قلب الخليفة ، وكاد يأمر بإخراجه من الحبس ، لولا تضافر الشانئين عليه ، الذين آثار كوامن نفوسهم بما أتى به فى همزيته هذه من هجاء موجع ، إذ ثلبوه عند (المتوكل) واغتابوه ، وعارضوه ، وممن عارضه (مروان بن أبى الجنوب) ـ أحد شعراء بلاط المتوكل ـ بقصيدة هجائية ، جاءت على وزن قصيدته وروبها ، يقول فيها :

ألم تعـــلم بأنك يا ابن جهم ... دعى فى أناس أدعيـاء
أعبد الله تهجوا وابن عمرو ... وبختيشوع أصحاب الوفاء[1] !
هجوت الأكرمين وأنت كلب ... حقيق بالشتيمة والهجـــاء

فتركه المتوكل فى محبسه[2] ، بل وأمر أن يقيد ، فوقع تحت وطأة الحبس والقيد فى آن معا .

إلا أن نفسه التى تزخر بنوازع الإباء تأبى إلا أن ترسل صيحات الإباء المستعلى ، فلقد أنشد مقطوعة بدأها بالغزل ، والحديث عن طيف المحبوب الذى تسلل إليه تحت جنح الظلام الدامس ، ثم انتقل ـ فى لطف وحسن تخلص ـ إلى الحديث عن أغلاله ، وأنها وسام وضع على صدره ، ينطق برجولة لا تعرف الخور ، يقول[3]:

إذا سلمت نفس الحبيب تشابهت ... صروف الليالى سهلها وشديدها
فلا تجزعى إما رأيت قيوده ... فإن خلاخيل الرجال قيودها

فهو غير عابىء بتقلبات الأيام ، غير أسف لتلك الأغلال ، يراها سمة عزة وأنفة ، ومن ثم لا تزرى به ، فالقيد للرجال كالخلاخيل للنساء ، والمعنى

---

(١) عبد الله ، وابن عمرو ، وبختيشوع ، من خاصة المتوكل الذين هجاهم ابن الجهم فى همزيته .

(٢) انظر تفاصيل الخبر فى : الأغانى ١٢/٧٣ ـ ٧٦ .

(٣) الديوان ص ٥١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بكر لم يسبق إليه ، وقد عده النقاد به من المجيدين(١) .

لكنه - وهو الحاذق اللبيب - لم ينس أن يمسح أعطاف الخليفة ، وأن يحاول استلال ما فى نفسه من سخيمة ، مع الحفاظ على إبائه وترفعه ، فلم يقل إن أمير المؤمنين يخلصه من أغلاله ، وإنما يعيد إليه ما انصرم من حياة الرخاء :

ولا تنكرى حال الرخاء وقوته فإن أمير المؤمنين يعيدها

فهو يعلن تجلده ، ويلقى - فى الوقت نفسه - بآماله فى ساح الخليفة ، وتلك لفتة ذكية منه .

وتظل قيثارته تبعث ألحان التجلد الشجى ، فينشد داليته الرائعة ، التى تنبض بالصمود فى وجه العاصفة ، وتكشف عن نمط جديد من شعر الاعتذار لا عهد للشعر العربى به ، فيه القوة والإباء ، والاعتداد بالنفس والأهل ونبيل الخصال ، وعدم المبالاة بالمحن العاتية ، فالشعراء قبله وبعده ألفوا الجأر بالشكوى من ويلات الحبس وهمومه ، يرونه هوانا ما بعده هوان . أما هو فيرى نفسه أسمى من أن يناله هوان ، وقد استهل القصيدة استهلالا بارعا بقوله(٢) :

قالت حبست فقلت ليست بضائر حبسى وأى مهند لا يغمد !
أر ما رأيت الليث يألف غيله كبرا وأوباش السباع تردد
والشمس لولا أنها محجوبة عن ناظريك لما ء أضاء الفرقد
والبدر يدركه السرار فتنجلى أيامه وكأنه متجدد
والغيث يحصره الغمام فما يرى إلا وريقه يراح ويرعد
والنار فى أحجارها مخبوءة لا تصطلى إن لم تثرها الأزند

---

(١) انظر : مروج الذهب ٤/١١٤ .
(٢) الديوان ص ٤١ وما بعدها .

والزاعبية لا يقيم كعوبها إلا الثقاف وجذوة تتوقد(١)

فالحبس - فى تقديره - لا يغض من قدر عظيم سمت به نفسه إلى مراقى العلا ، ولا ينال من نفسه الأبية ، بل يزيدها ثباتا وإباء ، فتحدث عن المهند يغمد ويبقى له مضاؤه، والليث يأوى إلى أجمته ترفعا عن مخالطة أوباش السباع فلا دخول الأجمة أزرى به ، ولا تردد أراذل السباع طليقة من حوله زادها قدرا ، والفرقد يجلوه الظلام ويبرز ضوءه ، والبدر يلحقه السرار ثم يبدو متوهجا يغمر ضوؤه فجاج الأرض ، والغيث يغيبه الغمام حينا ، ولكن سرعان ما تهب ريحه ويرعد وينهمر ، والنار كامنة فى الأحجار تظهرها الأزناد ، والرماح لا تأخذ حظها من المضاء والقوة إلا بالنار والثقاف .

وقد لمح الشاعر من الصلات ما أتاح له الجمع بين نفسه الأبية التى لم تزدها المحنة إلا صلابة ، وبين هذه الأشياء ، فى تشبيهات بديعة .

وكلمات الأبيات جزلة فخمة تعكس ما استكن فى أغوار نفسه من صلابة وجلد ، وكأنى به يريد أن يثبت صلابته ، ويبعث اليأس فى نفوس شانئيه ؛ فالخور لم يعرف طريقه إلى قلبه الملتاع ، فهو ليث وإن حجب ، وشانئوه أوباش السباع وإن كانوا مطلقى السراح ، ولا يخفى موضع كلمة « كبرا » وما تفصح عنه من إباء وشمم . والنار والزاعبية كلتاهما تحمل فى طياتها ما يسوء أعداءه ، فالمحنة لم تنل منه ، بل صهرته فى بوتقها ، فقوت شكيمته ، وفجرت طاقات الصمود والتحدى الكامنة فى أعماقه ، فهو نار ستلفح وجه من أيقظها من مرقدها ، ورمح أكسبها الثقاف صلابة وحدة .

وهو موقن أن اليسرى تعقب العسرى ، وأن الدهر قلب ، لذا اتخذ الصبر وجاء حتى تنجلى الكربة ، ثم تسلل فى لطف البصير المعتد بكرامته ، وأتى

---

(١) الزاعبية : الرماح منسوبة إلى رجل اسمه زاعب ، كان يعمل الأسنة .

آماله بين يدى الخليفة ، لعله يمن بالصفح الجميل ، ويرد له اعتباره أمام الوشاة والشانئين :

غير الليالى بادئات عود ... والمال عاريه يفاد ويفقد
ولكل حال معقب ولربما ... أجلى لك المكروه عما يحمد
لا يؤيسنك من تفرج كربة ... خطب رماك به الزمان الأنكد
كم من عليل قد تخطاه الردى ... فنجا ومات طبيبه والعود
صبرا فإن الصبر يعقب راحة ... وبد الخليفة لا تطاولها يد

وكان شانئوه قد سرهم ما أمر به المتوكل من مصادرة أمواله ، بعد الأمر بحبسه وقيده ، وحسبوا أن تلك الشدائد المتعاقبة قد نالت من كبريائه ، وإذا به غير عابىء بذلك كله ، فإذا كان غيره يضعف أمام بريق المال ، ويذوب حسرات لفواته ، فإنه ليس كذلك ، فهو أسمى من أن يتضعضع لفوات دنيا أصابها .

وقد وفق فى قوله : كم من عليل ... الخ البيت ، إذ قطع على الشامتين نشوة الإيقاع به ، وخبرهم أن أحداث الليالى غاديات رائحات . فواسى به نفسه وضمد جراحها ، وأقض مضاجعهم ؛ إذ حذرهم عواقب الغرور بالسلامة من آفات الدهر ، فغدا تنزل بساحتهم صواعقه .

ثم ينتقل إلى ملمح آخر من ملامح الاعتداد بالنفس والاستخفاف بالمحنة ، إذ يقول :

والحبس ما لم تغشه لدنية ... شنعاء نعم المنزل المتورد
بيت يجدد للكريم كرامة ... ويزار فيه ولا يزور ويحمد
لو لم يكن فى السجن إلا أنه ... لا يستذلك بالحجاب الأعبد

فهو يحسن الحبس ؛ ولا يرى فيه إزراء به . فالذين يترفعون عن الدنايا لا ضير عليهم منه ، فنعم المنزل هو . ثم أخذ يحتج للحبس مظهرا مزاياه ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فهو يحفظ على الكريم كرامته ، ويجعله مزورا مخدوما ، ويكفيه فضلا أنه خلو من أعبد يستذلون الناس بالحجاب على أبواب الخلفاء . وتلك قدرة قادرة مكنته من تحسين ما أجمع البشر على قبحه . وفى البيت الأول لمحة لطيفة . إذ أومأ إلى براءته مما نسب إليه ، أما البيت الأخير ففيه ازدراء لشانئيه الذين يحيطون بالمتوكل .

وقد ذكر الخليفة قرابته من النبى - صلى الله عليه وسلم - وما تستدعيه من التمسك بسنته ، وليس منها تقريب أحد الخصمين ، والإنصات لما يدلى به من حجج ، بينما الآخر مبعد يعانى قسوة القيد وظلمة المحبس ، فضلا عن أنه لا يمكن من الإدلاء بحجته :

أنتم بنو عم النبى محمد ... أولى بما شرع النبى محمد
ما كان من حسن فأنتم أهله ... طابت مغارسكم وطاب المحتد
أمن السوية يا ابن عم محمد ... خصم تقربه وآخر تبعد !

والأبيات الثلاثة تنطق ببراءته ، فقد مهد لبيته الأخير بقوله : « ما كان من حسن ... الخ البيت ، معلنا أن « المتوكل » أهل لفعل كل جميل ، وكأنى به يعلن رضاه عن كل مايصدر عن « المتوكل » ، حتى ولو كان الحبس والقيد ومصادرة الأموال . وفى ذلك من البراعة والحنكة ما لا يخفى على ذى لب .

وقد حرص على استمالة قلب الخليفة ، فنسبه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وكرر يا ابن عم محمد إمعانا فى التأثير عليه . ولم يطلب منه العفو ، وإنما طلب مجرد الإنصاف ، وسماع صوت الغائب . وفى الأبيات عتاب رقيق أملته صحبة سابقة توثقت عراها سبع سنوات تقريبا ، وليس فيها مخاشنة ولوم ، كما ذهب عبد الرحمن الباشا (١) .

---

(١) أنظر : على بن الجهم - حياته وشعره لعبد الرحمن الباشا ط دار المعارف .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفى محاولة بارعة للتنصل به مما رمى، والإيقاع بالخصوم، يخاطب المتوكل قائلا :

إن الذين سعوا إليك بباطل ... أعـداء نعمتك التى لا تجحد
شـهدوا وغبنا عنهم فتحكموا ... فينا وليس كغائب من يشهد
لو يجمع الخصمين عندك مشهد ... يوما لبان لك الطريق الأقصد
فلئن بقيت على الزمان وكان لى ... يوما من الملك الخليفة مقعد
واحتج خصمى واحتججت بحجتى ... لفلجت فى حججى وخاب الأبعد
والله بالغ أمره فى خلقـه ... وإليه مصدرنا غدا والمورد
فبأى ذنب أصبحت أعراضنا ... نهبا يشيد بها اللئيم الأوغـد

البيت الأول مأخوذ من قول «النابغة الذبيانى» معتذرا إلى النعمان :

لئن كنت قد بلغت عنى وشاية ... لمبلغك الواشى أغش وأكذب

إن «ابن الجهم» أجاد وتفوق على «النابغة»، فالنابغة يقر بالجرم ضمنا، إذ اتهم الوشـاة بأنهم غش وأكذب، أما «ابن الجهم» فقد خير - موقنا - أن ما جاءوا به إفك مختلق، وأنهم أعـداء نعمة المتوكل وهى أجل من تجحد، فبرأ نفسه، واتهم شانئيه، ومدح المتوكل، هذا بالإضـافة إلى أن لفظه أملح.

ثم يأتى البيت الثانى وما يليه من أبيات تعد من فرائد أبياته، بما تحمل من معانى جديدة. فالوشاة أفسح لهم الخليفة فى صدور مجالسه، وهم يبدئون ويعيدون، و«ابن الجهم» يحول الحبس بينه وبين قرع الحجة بالحجة، ورد السهام إلى صدور مرسليها، وأنى يتساوى شاهد وغائب ؟. ولو أن مشهدا ضم الخصمين وأدلى كل منهما بحجته، لدمغ أعداءه، ودحض فراهم، بما يأخذ بتلابيبهم إلى قعر السجون.

ثم يلوذ بإيمانه الذى يعصمه من التردى فى مهاوى القنوط، إذ يوقن أن أعنة الأمور فى يد المدبر القادر على إنفاذ مراده، الذى يجزى كل نفس بما كسبت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم تأبى نفسه المترعة بالأسى إلا أن ترسل نفثة مثقلة بالهموم :

فبأى ذنب أصبحت أعراضنا نهبا يشيد بها اللئيم الأوغد

فهو يعتب على « المتوكل » إطلاق ألسنة ندمانه وخاصته ، تلغ فى عرضه ، وتفشى عنه كل قبيح ومكروه .

والقصيدة لوحة فنية رائعة ، أزجتها موهبة فذة ، وعاطفة جياشة ، وخيال خصب ، وعقل صناع ، ونفس أبية . لذا بدت ملامح الجودة فيها من مطلعها إلى خاتمتها ، فالمطلع يشير إلى المغزى الذى قصده ، وينبىء - بما اشتمل عليه من حوار بينه وبين نفسه - عن تمكن واقتدار ، وجاءت الخاتمة تشعر المتلقى أنها الغاية التى لا غاية بعدها .

أما الكلمات فقد انتقاها فخمة جزلة تعكس ما انطوت عليه نفسه من هدير معتد ، وتحمل فى طياتها من الإيحاءات ما ينقل إلى المتلقين مشاعره فى يسر وسهولة ، وهى جمرات متقدة يقذف بها وجوه شانئيه ، الذين سعوا به لدى الخليفة ، وسرهم ما نزل بساحته من شدائد ، وهى فى الوقت نفسه تفصح للخليفة عن معدن الشاعر ، وتفضح ما جاء به الوشاة من إفك مختلق ينفث سمومه على الشاعر والخليفة معا .

وانتقاء الألفاظ مكنه أيضا من أداء معانيه بدقة وإحكام ، وجعل أسلوب القصيدة محكما يبعث جرسا موسيقيا امتزجت به أنغام تبعثها مقاطع البحر الكامل ، والدال المجهورة التى جاءت رويا للقصيدة .

وقد سلك طريق المنطق والحجة وأسلوب الشرط والجدل ، يدعم بها حججه ، ويكسبها المسحة المنطقية المقنعة .

واستطاع حشد كثير من التشبيهات الأخاذة التى تجسد مشاعره وهو يصلى نيران محن مروعة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد أبدع فى ابتكار كثير من المعانى التى لم يقع عليها سابقوه الذين جروا فى هذا المضمار ، واحتذاها عارضها معاصروه ولاحقوه .

ولهذا كله حظيت القصيدة بإعجاب النقاد والمتلفين معا، فالنقاد عدوا بها (ابن الجهم) من الفحول المبدعين ، بل جعلوه أشعر الناس[1] .

أما من حلت بساحتهم نكبة الحبس ، فقد وجدوا فيها ما يشد من أزرهم ، ويهيب بهم ألا يضعفوا فى مواجهة المحنة .

وتجدر الإشارة هنا إلى ماذهب إليه الأستاذ خليل مردم ، - طيب الله ثراه - فى المقدمة القيمة التى قدم بها ديوان الشاعر، من أنه فى البيت الثالث:

والشمس لولا أنها محجوبة عن ناظريك لما أضاء الفرقد

(شبه نفسه بالشمس فى حجابها)[2] وإلى ذلك ذهب (عبدالرحمن الباشا) إذ قال[3] : (فما أنا حين دخلته (أى السجن) إلا شمس احتجبت وراء الأفق لتفيض على الأفلاك النور) .

وفى تصورى أن ماذهبا إليه يتنافى مع مراد الشاعر من جهة ، ويتنافى مع الحقائق العلمية الثابتة من جهة أخرى ، فالشاعر يريد التدليل على أن الشدائد المتعاقبة لم تنل من نفسه الأبية ، بل صقلتها وأبرزت أصالة معدنها. والقول بأنه شبه نفسه بالشمس المحتجبة وراء الأفق لا يحقق مراده ، والفرقد نجم مشع بذاته . ولنا أن نتساءل : من هم المعنيون بالأفلاك التى تفيض عليها الشمس المحتجبة النور ؟ ليس هناك احتمال سوى خاصة المتوكل وندمائه ،

---

(١) أنظر : أعلام الكلام لابن شرف القيروانى ص ٢٣ ، مروج الذهب ٤/١١٢ ، وفيات الأعيان ٣/٣٥٧ ، طبقات الشعراء ص ٣٢١ .

(٢) مقدمة ديوان على بن الجهم ص ٣٣

(٣) على بن الجهم - حياته وشعره ص ١٨٨

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهذا تصور جد بعيد، لذا رأيت أنه شبه نفسه بالفرقد، يجلوه الظلام ويبرز ضوءه. أما احتجاب الشمس فيرمز به لمحنة الحبس.

ويظل «المتوكل» معرضا عن «ابن الجهم» الذى ما فتئ معتدا بنفسه، غير عابئ بما نزل بساحته، إلا أن كبرياءه داخلها شيء من اليأس، لكنه يقاومه بجلد الأباة، فها هو ذا يهدى درايته بالدهر وتقلباته، وأنه إن أساء اليوم سيجلب المسرة غدا، إذ يستهل قصيدة لامية بقوله[1]:

للدهر إقبال وإدبار ... وكل حال بعدها حال

وصاحب الأيام فى غفلة ... وليس للأيام إغفال

والمرء لا يبقى منه إلا الأحاديث والذكر، ومن ثم يجدر بالمتوكل أن يمن عليه بصفح جميل، يبقى له على مر الأيام معين ثناء لا ينضب:

والمرء منسوب إلى فعله ... والناس أخبار وأمثال

ثم يذكر الشامتين ما تحدثه الآجال بالآمال، وما تفعله الدنيا ببنيها من رفع وخفض:

يا أيها المطلق آماله ... من دون آمالك آجال

كم أبلت الدنيا وكم جددت ... منا وكم تبلى وتغتال

ويبدو أنه أحس ثقل صدود من تعود مصاحبته. فماذا يفعل وهو الجلد الأبى؟ لم يجد سوى الصبر يتخذه وجاء:

ما أحسن الصبر ولا سيما ... بالحر إن ضاقت به الحال

وكلمة (الحر) توحى بالإباء الذى ينأى بصاحبه عن الضعف فى مواجهة المحن، أما قوله: «إن ضاقت به الحال» فيوحى أن اليأس بدأ يجد طريقه

---

(١) الديوان ص ٦٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إن قلبه الملتاع ، مما أثار كوامن الكبرياء فى نفسه ، فإذا بهدير الفخر يعاوده ، ليقطع الطريق على كل ألوان اليأس والفتور :

يشهد أعدائى بأنى فتى قطاع أسباب ووصال
لا تملك الشدة عزمى ولا يبطرنى جاه ولا مال

فهو يفخر بقدرته على نفع الصديق، وكبت العدو ، وأنه لا تضعضعه شدة، ولا يذهب بلبه جاه ولا مال . والكلمات : (فتى ، قطاع ، وصال) تنبىء عما يتمتع به من قلب معمور بالبأس والفتوة .

ثم دلف إلى الخليفة يستحثه عن العفو عنه ، فذكره إخلاصه له ، وأنه ما زال عليه :

بلغ أمير المؤمنين الذى لم آله نصحا ولا آلو

ويستمر فى مقاومة دواعى اليأس ، فيقول قصيدة سينية ، لم يبق منها سوى هذين البيتين(١) :

إن خس حظى من مال تخونه ريب الزمان فما عرضى بمخسوس
أو تغفلونى فأيامى تذكركم أو تحبسونى فما شعرى بمحبوس

فإنه إن أنت عليه صروف الزمان ، فحسبه براءة عرضه من الانتقاص أو الثلب ، وإن أغفله الخليفة وصد عنه ، فإن الصحبة السابقة تذكره به ، وإن حبس جسده ، فشعره طواف تفتح له مغالق القلوب ، وهو شديد الوطأة على الأعداء .

ويبدو أن البيتين من قصيدة تموج بالفخر والاعتداد بالنفس، وقد عمد إلى أسلوب الشرط والجدل يدعم به دعوى التجلد ، إلا أن همس (السين) - التى تكررت فى تضاعيف البيتين ، وجاءت رويا لهما - يفضح ما انطوت

---

(١) الديوان ص ٩٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عليه نفس الشاعر من أسى مكبوت ، ويوحى أن اليأس بدأ يتسرب إلى نفسه التى تتجلد للشامتين .

وتطول محنته ، ويدرك أن خصومه - بمكايدهم - قد تملكتهم نشوة الظفر به ، فيزجى مدائحه المتوكل ، يمزجها باعتداده بنفسه تارة ، وتحقير شأن أعدائه تارة أخرى ، واستعطاف الخليفة ثالثة ، مع تطامن كبريائه ، لتبدأ مرحلة جديدة فى اعتذاراته ، تطالعنا فيها نبرة الانفعال الصادق الحار ، المشوب بالألم ، وأصبح إيقاع الفخر المستعلى تخالطه نغمات الأسى المكبوت ، فهاهو ذا ينشد قصيدة حائية مطلعها[1] :

أقلى فإن اللوم أشكل واضحه وكم من نصيح لا تمل نصائحه

وفيها يؤكد أن الضر لا يفزعه ، وأن مدائحه فى (المتوكل) يزجيها إخلاص مبرأ من الملق والمخادعة :

سأصبر حتى يعلم الصبر أننى أخوه الذى تطوى عليه جوانحه
وأقبل ميسور الزمان وإنما أرى العيش مقصورا على من يسامحه
فأخلص مدحى للذى إن دعوته أجاب وإلا أسعدتنى مدائحه

ولفظة (أخوه) توحى أنه صار بينه وبين الصبر نسبا . والبيت الثالث يشهد له بلطف الحيلة ، إذ خبر أنه يصدر فى مدائحه عن إخلاص للمتوكل ، وأنه ما يزال - على الرغم من إعراضه عنه - موقنا من لفتة حانية منه ترد إليه ما سلب ، وأنه - وإن لم يفعل - سيظل يتحفه بمدائحه ، لأنه يجد سعادته فى ذلك .

ثم يقرع أسماع خصومه بقوله :

فلا يشمتن قوم أصابوا بمكرهم على سبيلا أغلقتها مسالحه

---

(١) ذاته ص ٦٤ .

ولا ذنب للعود الذماري إنما يحرق من دلت عليه روائحه[1]
وما المكر إلا للنساء وإنما عدوك من يصحبك حين تصالحه

إذا كان الوشاة - بأقاويلهم الملفقة - قد قطعوا على كل طريق إلى قلب (المتوكل) ، فليس في هذا ما يدعوهم إلى إظهار الشماتة به ، فابن كريم نمته أعراق واشجة في المكارم والأدب والجاه ، وهذا سر حنق هؤلاء الذين حادوا عن مسالك الكرام في الخصومة ، فسلكوا مسالك النساء . وقد لمح ما بينه وبين العود الذماري من صلة أتاحت له التشبيه ، ثم ساق الحكمة الرائعة « إنما يحرق من دلت عليه روائحه » .

وقد تفوق في البيت الثاني أثر صديقه (أبي تمام) إذ يقول[2] :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

فجاء (ابن الجهم) بالمعنى نفسه في نصف بيت ، مع حسن اللفظ ، وجودة السبك واستيفاء المعنى ، ومن ثم عودته من فرائده :

وله دالية أخرى ، مطلعها[3] :

اغتنم جـــدة الزمان الجديد واجعل المهرجان أيمن عيد

فيها يمدح (المتوكل) بالرحمة والبأس والندى ، ولا غرو فهو ابن عم النبي - صلى الله عليه وسلم - وحفيد عظماء بني العباس .

نحن في ظل أرحم الناس بالنا س وأولاهم ببأس وجود
صفوة الله وابن عم نبي اللـ ـه وابن (المهدي) وابن (الرشيد)

---

(١) الديوان ص ٦٤ وما بعدها .

(٢) الذماري - بفتح الذال المشددة وكسرها - نسبة إلى بلدة على مرحلتين من صنعاء : معجم البلدان لياقوت ٧/٣ ط بيروت .

(٣) ديوان أبي تمام ٣٩٧/١ تحقيق محمد عبده عزام ط دار المعارف ١٩٦٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هو شمس الضحى إذا أظلم الخطـ ب وبدر الدجى وسعد السعود

ثم يذهب إلى أن حبه والإخلاص له من تتمة هذه العقيدة الغراء :

إلى أن يقول :

غرس كفيك يا ابن عم رسول اللـ ـه أنشأتنى وأورقت عودى
أنت أثرت حاسدى وقد كنـ ـت زمانا لا أهتدى لحسود

فهو يمسح أعطاف الخليفة مسحا رفيقا ، إذ يقول : أنا غرس تعهدته يداك بالندى وشتى ضروب الحياطة ، حتى صرت نبتا غضا مورق العود ، دانى الجنى ، ومن ثم كثر الذين نفسوا على أياديك ، فلا تحل - بالحبس - بينى وبين حياة طيبة أنت واهبها . وقد جهد فى التودد إليه ، تطييبا لنفسه ، فأجاد ، وأحسن الاعتذار ، إذ ذكره أياديه عليه ، ثم أهاب به أن يتقفى أثرا ابن عمه - صلى الله عليه وسلم - فى العفو وقبول العذر ، وإمعانا فى التأثير أتى بالأفعال : « أنشأ ، أورق ، كثر » ، وعدى الفعل « أورق » - على الرغم من لزومه - ليصل إلى مبتغاه .

ويقوم « المتوكل » ببناء « القصر الهارونى » ، فيجد « ابن الجهم » الفرصة سانحة لمدح الخليفة والتودد إليه ، فينشد قصيدة رائية يصف فيها القصر ، متخذا من روعة البناء وإحكامه سبيلا لمدح بانيه ، مطلعها(١) :

مازلت أسمع أن المـلوك تبنى على قدر أخطارها
وأعلم أن عقول الرجال يقضى عليها بآثارها

ويتابع وصف القصر ، ومنه يتسلل إلى قلب « المتوكل » إذ يختمها بقوله :

فلا زالت الأرض معمورة بعمرك يا خير عمارها
تبوأت بعدك قصر السجو ن وقد كنت أرثى لزوارها

---

(١) الديوان ص ٢٨ .

وفى البيت الأخير استعطاف واضح ، تدعمه إيحاءات ألفاظه وتراكيبه ، فجمل « نبوأ » ينبيء عن إحساس الشاعر بوطأة الحبس وطول أمده ، ولفظة « بعدك » توحى بإحساس الشاعر بالمرارة لانصراف قلب (المتوكل) عنه ، وفى قوله : « قمر السجون » من الإحساس بالمرارة مافيه ، أما قوله : « وقد كنت أرثى لزوارها » فيشعرنا أن طول مكثه فى السجن جعل اليأس يتسرب إلى نفسه الأبية ، وجعله يغير نظرته إلى الحبس ، ومن ثم فهو محتاج لمن يرثى له ، فهو القائل فى داليته ، وهو بصدد تحسين السجن :

بيت يجدد للكريم كرامة ويزار فيه ولا يزار ويحفد[1]

وكان « ابن الجهم » يعتقد أن البيت الأخير من الرائية سيفتح مغاليق قلب الخليفة . إلا أنه علق - فى غضب - بعد سماعه قائلا : « هذا بما كسبت يداه »[2] .

وله قصيدة ميمية يمدح بها « المتوكل » ، وأرجح أن تكون من فيض المحنة ، وقد استهلها بالحنين إلى أيام الشباب التى تصرمت[3] :

ولما رمى بالأربعين وراءه وقارع م الخمسين جيشا عرمرما
تذكر من عهد الصبا ما تصرما وحن فلم يترك لعينيه مسجما

وفيها يقول :

هو الدهر لا يعطيك إلا تعلة ولا يسترد العرف إلا تغنما[4]
عزاء عن الأمر الذى فات نيله وصبرا إذا كان التصبر أحزما

فعطاء الدهر تصريد ، وأخذه شديد ، والعاقل من يتصبر فى مواجهة نوبه .

ثم يقول :

(١) ذاته ص ٤٥ . (٢) الأغانى ٢٣٣/١٠ .
(٣) الديوان ص ١٧ وما يليها . (٤) تغنما : عده غنيمة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خليلي من فرعى قريش رزينا ... فتى قارع الأيام حتى تثلما(١)
وأحكمه التجريب حتى كأنما ... يعاين من أسراره ما نوهما
ومن ضعفت أعضاؤه اشتد رأيه ... ومن قومته الحادثات تقوما
خذا عظة من أحوذى تقلبت ... به دول الأيام بؤسا وأنعما
إذا رفع السلطان قوما ترفعوا ... وإن هدم السلطان مجدا تهدما

فالمحنة أنهكت قواه ، وكثرة التجارب أحكمته ، وعودته ضبط النفس ، وتوخى الاتزان ، وفتحت عينيه على القيم الحقيقية للناس والأشياء والحوادث ، ومن ثم أدرك ما فى رضا السلطان من نفع ، وما يحمله غضبه من ضياع .

ويختم القصيدة بقوله :

ولعل بنى العباس يأسو كلومهم ... فيجبر منى هاشم ما تهشما

صدر البيت - كما أشار محقق الديوان - غير مستقيم المعنى ، أما عجزه ففيه استعطاف بين وضراعة للمتوكل - وهو الهاشمى - لعله يمن بالصفح .

والأفعال : « تثلم ، تقوم ، تهدم ، تهشم » تفيد المطاوعة ، وأنه لم يعد قادرا على مجابهة الدهر ومقارعته .

وينشد ميمية أخرى يستهلها بالحديث عن الشيب الذى وخط شعره ، مطلعها(٢) :

حسرت عنى القناع ظلوم ... وتولت ودمعها مسجوم
أنكرت ما رأت برأسى فقالت : ... أمشيب أم لؤلؤ منظوم ؟

---

(١) يريد بفرعى قريش : قريش البطاح وهم ولد قصى بن كلاب وبنو كعب بن لؤى ، وقريش الظواهر وهم سوى أولئك .

(٢) الديوان ص ١٧٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فيها يلقى تبعة الشيب على عاتق الهموم ، التى جلبها صدود الخليفة عنه ، إلا أنه يعلن تصبره ورضاه بما نزل بساحته :

هو عندى من الهموم التى يحسن فيها العزاء والتسليم
شد ما أنكرت تصرم عهد لم يدم لى وأى حال يدوم !

قوله : « وأى حال يدوم » نفثة مصدور تبدى ما وقر فى نفسه من أسى، لانتقاله من حياة ناعمة رخية إلى حياة قاسية ، حيث الحبس ووحشته ، والقيد وقسوته .

ومنها يقول فى المتوكل :

ليس عندى وإن تغضبت إلا طاعة خرة وقلب سليم
وانتظار الرضى فإن رضى السادات عز وعتبهم تقويم

فهو يتودده ويستعطفه بالإفصاح عن رضاه بكل ما ألحقه به ، وأن قلبه قد انطوى على الإخلاص له ، وانه مازال يمنى نفسه برضاه عنه ، وتخليصه مما هو فيه .

وقد أجاد حين لجأ إلى أسلوب القصر ، وخبر عن طاعته أنها لم تشبها شائبة تمرد ، وأن رضاه عز ، وعتبه تقويم ، وكأنه يمدحه فى رضاه عنه ، وفى سخطه عليه . وكلمة « تقويم » وقعت موقعها فى مقام الإصلاح .

والمتأمل فى قصائده الأخيرة ، يلمس تطامن غلوائه وتخليه عن شىء من كبريائه ، وأن دواعى اليأس بدأت تلح عليه ، وأنه بدأ يلمح إلى مالحقه من هوان بيد من أصفاه خالص وده .

وكان المؤمل أن تمس تلك الصيحات شغاف قلب « المتوكل » ، فيبادر بالصفح عن خليله ، ولكنه تمادى فى غيه ، وأصم أذنيه عن سماعها ، وأصاخ لحساده ، وكأنه يحرص على النيل من كبريائه وصلابة مراسه ، ومن ثم لم يجد الشاعر بدأ من التصريح بما يعانيه ، والتخلى عن كثير من اعتداده بالنفس ،

وإظهار الضراعة له . وتلك مرحلة جديدة فى اعتذارات ابن الجهم ، نجد صدى ذلك كله فى قصيدة رائية يقول فيها(١) :

إن ذل السؤال والاعتذار   خطة صعبة على الأحرار
ليس جهلا بها أوردها الحر   ولكن سوابق الأقدار
فارض للسائل الخضوع وللقا   رف ذنبا مضاضة الإعذار
واستعذ منهما فبئس المقاما   ن لأهل العقول والأخطار

فهو ما زال به بقية من أنفة إذ يرد حمل نفسه على السؤال والاعتذار ، وهى تأباهما لما ينطويان عليه من هوان يصعب على الحر تقبله ، ولكنه القدر القاسى الذى يسوق الأحرار إلى موارد الذل على الرغم منهم ، وحسب النفس الأبية حملها على السؤال والاعتذار ، ففيهما عقاب لها دونه أى عقاب ، ومن ثم يجدر بالخليفة أن يعفو ، بل إنه يدعوه أن يستعيذ بالله من مقامى السؤال والاعتذار ، فبئس المقامان هما ، وتلك براعة منه .

والأبيات تحكى قصة صراع نفسى عنيف ، بين الشاعر الذى نالت منه المحنة ، وبين نفسه الأبية ، وألفاظ الأبيات تشف عن هذا الصراع .

ويختم الشاعر القصيدة بقوله :

يا ابن عم النبى أيسر من عثـ   ـرتك فقد الأسماع والأبصار
أنت من معشر شرعوا العفـ   ـو ولم يعذروه عند اقتدار
إن تجافيت عنهما كنت أولى   من تجافى عن الذنوب الكبار
أو تعاقب فأنت أعرف بالله   وليس العقاب منك بعار

فهو يحتال عليه بالقول الرقيق ، ليغسل ما علق بفؤاده من موجدة ، وينتزع منه العفو ، إذ يدعوه بابن عم النبى صلى الله عليه وسلم ، الذى شرع العفو عند المقدرة ، ويقر بما جره عليه عتب الخليفة من إيلام يتضاءل بجانبه

---

(١) الديوان ص ١٤٩ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقد الأسماع والأبصار ، وأنه إن جاد بالعفو فأهل له وإن عاقب لايشتط في عقابه ، لأنه أعرف بالله ، والعقاب منه ليس عارا . والأبيات تنطق بلطف حيلة « ابن الجهم » .

وعلى الرغم مما سرى في القصيدة من التأثر والمرارة ، فإن « المتوكل » ظل على إعراضه عنه ، لعله يأتي على البقية من عناده .

وقد أنشد قصيدة دالية يمدح بها (المتوكل) ، ويذكره حقوقه عليه ، مطلعها(١) :

عفا الله عنـــك ألا حرمة تعوذ بعفوك أن أبعدا
لئن جـــل ذنب ولم أعتمده فأنت أجل وأعلى يــدا
ألم تر عبدا عـــدا طوره ومولى عفا ورشيدا هدى
ومفسد أمر تلافيتـــه فعاد فأصلح ما أفســد

إنه يستعطف « المتوكل » بنفس كسيرة أتى عليها الهم ، ويستثير فيه كوامن الرحمة والإشفاق ، فهو يستهل القصيدة بالضراعة إلى الله عزوجل ليعفو عنه ـ وتلك براعة استهلال منه ـ ثم يذكره ما لصحبة دامت سبع سنوات من حقوق ، أدناها أن يعفو عنه . ثم يقر بذنب لم تجنه يداه ، وينزل نفسه منزلة عبد عدا طوره ، ويرشده إلى أن العفو عن المسيء يدفعه إلى إصلاح ما أفسده ، ويجعله أسير المعروف :

ثم يستغيث « بالمتوكل » استغاثة ضارعة ، ليقيله مما هو فيه :

أقلني أقالك من لم يزل يقيك ويصرف عنك الردى
وينجيك من غمرات الهمو م ووردك أصيمها موردا

ثم يمدحه مدحا تشيع فيه المبالغة ، وتبدو عليه مسحة الزلف :

---

(١) الديوان ص ١٧٧

قضى أن ترى سيد المسلمين ... وأن لا يرى غيرك السيدا
وأعلاك حتى لو أن السما ... تنال لجاوزتها مصعدا
ولم يرض من خلقه أجمعين ... الا نحب ولا يعبدا
فما بين ربك جل اسمه ... وبينك الا نبي الهدى
وأنت بسنته مقتد ... ففيها نجاتك منه غدا

وفى البيت الأخير إيماءة لطيفة ، إذ ذكره سنة النبى صلى الله عليه وسلم وما فى التمسك بها من أسباب النجاة يوم القيامة . ومن سنته - صلوات الله عليه - العفو عن المسىء .

ثم يحاول التأثير على « المتوكل » واستمالته إليه ، إذ يقول :

وعفوك عن مذنب خاضع ... قرنت المقيم به المقعدا
إذا درع الليل أفضى به ... إلى الصبح من قبل أن يرقدا
بحق أياديك أن تجحدا ... وما خير عبدك أن يفسدا !
أليس الذى كان يرضى الولى ... ويشجى العدو إذا أنشدا
فصن نعمة أنت أنعمتها ... وشكرا غدا غائرا منجدا

فهو يقر بجرم ساحته منه براء ، ويفصح عن هم انقض مضجعه ، ويتحدث عما أسداه إليه « المتوكل » من أياد لا تجحد . ويذكره دور شعره فى الدعوة له ، والإعلان عن مآثره مما أرضى الصديق ، وكبت العدو . لذا يجب عليه الحفاظ على ما أسداه إلى الشاعر من معروف من جهة ، والحفاظ على الصورة المشرقة التى رسمها له من خلال شعره من جهة أخرى . لكنه لم ينس مواقف خصومه منه ، ومن ثم لم يكف عن هجائهم ومقارعتهم ، لذا عرج عليهم يهجوهم ويثلبهم ، وينسبهم إلى كل خلق ذميم :

ولا عدت أعطيك فيما أمرت ... به أو أرى فى الثرى ملحدا
وإلا فخالفت رب السماء ... وخنت الصديق وعفت الندى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكنت كعزون أو كابن عمرو مباح العيال لمن أولدا (١)

وهجاء خصومه من خاصة « المتوكل » وندمائه يقطع بأنه ما نزال به بقية من عناد ، فهو يعلم مدى تأثيرهم على « المتوكل » ، وأنهم السبب الحقيقي في محنته والسبب المباشر في طول أمدها ، لكنه - بدافع من أنفته وعناده - لم يبال بشيء من هذا كله .

وهو في البيت الثاني يغني في حب « المتوكل » ويجعل طاعته طاعة لله ، والخروج على أمره مخالفة لرب السماء . وتلك براعة من الشاعر .

وقد احتال « ابن الجهم » في توصيل هذه القصيدة إلى « المتوكل » الذي رق لحاله ، وهم بإطلاق سراحه ، إلا أن خصومه الذين أزرى بهم في القصيدة وفي غيرها من شعره ، قد احتالوا على « المتوكل » حتى شرب ونام ، ليظل الشاعر رهين محبسه (٢) .

وكتب إلى نجاح (٣) من الحبس (٤) :

إن تعف عن عبدك المسيء فني فضلك مأوى للصفح والمنن
أتيت ما أستحق من خطأ فعد لما تستحق من حسن

وفي البيتين ضراعة خاشعة ، وإقرار بالوقوع في الخطأ ، ومحاولة بارعة لاستلال الموجدة ، ورغبة ملحة في الحصول على العفو . وكأنه يقول له : إن حلمك أعظم من ذنبي ، وعفوك يمحو زلاتي ، فجد علي بما أنت أهله .

---

(١) عزون وابن عمرو : من خاصة المتوكل .

(٢) أنظر تفاصيل القصة في : الأغاني ١٠/٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٣) هو نجاح بن سلمة ، وكان على ديوان توقيع المتوكل ، وتوفي سنة ٢٤٥ ، أنظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٧/٨٨

(٤) الديوان ص ١٨٩

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكنى أرفض القول بأنه وجههما إلى نجاح بن سلمة ، ليكون شفيعه لدى « المتوكل » ، فابن الجهم يرى نفسه أسمى من أن يظهر ضعفا أمام أحد خاصة « المتوكل » حتى ولو كان صديقه نجاح بن سلمة ، لذا أرى أنه وجههما إلى المتوكل نفسه .

وله أيضا قطعة جيدة يلوذ فيها بجانب الله عز وجل ، ويصور حالة المساجين تصويرا بارعا :

إلى الله فيما نابنا نرفع الشكوى ... ففى يده كشف الضرورة والبلوى
خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها ... فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى
إذا جاءنا السجان يوما لحاجة ... عجبنا وقلنا : جاء هذا من الدنيا
ونفرح بالرؤيا نجل حديثنا ... إذا نحن أصبحنا الحديث عن الرؤيا[1]
فإن حسنت لم نأت عجلى وأبصأت ... وإن قبحت لم تحتبس وأنت عجلى

الواقع أن إيمانه لم يزايله لحظة واحدة ، ولكنها طارقات الأيام تتزاحم عليه فتدفع به إلى مايشبه اليأس من الحياة .

وبعد مرور عام كامل قضاه فى الحبس ، رق له قلب المتوكل ، ورد إليه حريته ، ومن ثم بدأ يعمل على استعادة مكانته لدى الخليفة ، مما أفزع خصومه ، فعملوا على الإيقاع به مرة أخرى ، فأبلغوا المتوكل[2] أن عليا بعد إطلاق سراحه هجاه ، فنفاه إلى خراسان ، وكتب بأن يصاب إذا وردها يوما إلى الليل ، فلما وصل إلى « الشاذياخ »[3] حبسه طاهر بن عبد الله بن طاهر بها ، ثم أخرج فصلب يوما إلى الليل مجردا ، ثم أنزل فقال :

لم ينصبوا بالشاذياخ صبيحة الإثـ ... ـنين مغمورا ولا مجهولا
نصبوا بحمد الله ملء عيونهم ... شرفا وملء صدورهم تبجيلا

---

(١) الديوان ص ٩٦ (٢) أنظر الأغانى ١٠/٢٢٠

(٣) من ضواحى نيسابور أم بلاد خراسان .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهما مطلع قصيدة تعد من غرر الشعر العربى .

واختيار خراسان دون غيرها لتكون منفى للشاعر ، مدعاة للتساؤل ، ولكن يبدو أن ما قام به الشاعر - قبيل محنته وفى إبانها - من هجاء آل طاهر ، ونسبتهم إلى الرفض [١] ، هو الذى دفع المتوكل إلى نفيه إلى خراسان ، إمعانا فى التنكيل به . ليجدو واليها « طاهر بن عبد الله بن طاهر » الفرصة سانحة لينتقم لنفسه وآله من ابن الجهم

وكانت المحنة الأولى قد نالت منه ، وأودت بكثير من أنفته ، اذا لم يجد بدا من الاعتذار لطاهر . وهذه مقطوعة أرسل بها إليه ، يستعطفه فى أنفة ، ويعتذر إليه فى شموخ عما بدر منه ، ويذكره ما له من حقوق يعرفها القاصى والدانى لشهرتها ، ويعتب عليه عتابا رقيقا ، إذ يقول [٢] :

إن كان لى ذنب فلى حرمة ... والحق لا يدفعه الباطل
وحرمتى أعظم من زلتى ... لو نالنى من عدلكم نائل
ولى حقوق غير مجهولة ... يعرفها العاقل والجاهل
وكل إنسان له مذهب ... وأهل ما يفعله الفاعل
وسيرة الأملاك منقولة ... لا جائر يخفى ولا عادل
وقد تعجلت الذى خفته ... منك ولم يأت الذى آمل

والبيت الثالث يكشف عن اعتداد الشاعر بنفسه ، على الرغم من كل ماناله ، وفى البيت الأخير تلطف بين ، والمقطوعة - كما يرى خليل مردم - إلى التنديد أقرب منها إلى التظلم [٣] .

وبعد مدة - غير معلومة على وجه التحديد - قضاها « ابن الجهم »

---

(١) أنظر : طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٥١
(٢) الديوان ص ١٦٩ .
(٣) مقدمة الديوان ص ١٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فى سجن الشاذياخ كتب المتوكل إلى طاهر بن عبد الله بإطـــلاق على ابن الجهم[١] .

وبعد ، فإن ما قدمناه من اعتذارات ، على بن الجهم ، يحمل فى طياته أمورا :

أولها : أبدى ، ابن الجهم ، ضروبا من الإباء لا عهد لشعر الاعتذار بها ، ومن ثم فتح أمام الشعراء باباً جديدا فى الاعتذار ، قوامه الاستعلاء والإباء ، والاستخفاف بالمحنة ، فقد ظل - على الرغم من كل ما حل به من الحبس والقيد ومصادرة الأموال - يرسل صيحات الإباء المستعلى ، بل هدير الإباء المعتد ، وحين يحس اليأس بدأ يجد طريقه إلى قلبه ، فإنه يستجمع قواه ، ويستدعى جلده ، ليقطع عليه كل طريق ، وهو فى ذلك كله يصدر عن طبع لاعن تـكلف .

ومن ثم بدا متماسكا لم تعصف المحنة بلبه ، ولم يهن كما هان غيره ممن نكبوا فى حرياتهم ، على الرغم من قسوة ماحل به .

ومرد ذلك كله إلى عاملين رئيسين :

(ا) قلب معمور بالإيمان الذى يعصم صاحبه من الضعف فى مواجهة المحن ، فـكان يرى المصيبة فى الدين هى الماحقة ، أما فيما سوى الدين فهينة ، يقول[٢] :

إن المصائب ما تعدت دينه نعم وإن صعبت عليه قليلا

وهذه نظرة يفتقدها أعلام شعراء الاعتذار قاطبة .

(ب) ينتمى الشاعر إلى قريش ، ومن ثم اتخذ من قرشيته وجاء يحول بينه وبين الضعف فى مواجهة المحن ، مهما اشتدت وطأتها ، وهو القائل[٣] :

---

(١) الأغانى ١٠/١٢٠ (٢) الديوان ص ١٧٣ .

(٣) ذاته ص ٢٣٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أبت لى قروم أنجبتنى أن أرى وإن جل خطب خاشعا أتضجر

ثانيها : مخرج - فى براعة واقتدار - الاعتذار بالفخر والمدح والهجاء، إذ فخر بنفسه ، وطيب عنصره . وبسط بين يدى « المتوكل » مدائحه ، بغية تطييب نفسه حتى يمن عليه بالعفو ، إلا أنه قد جاوز القدر أحيانا ، وهجا خصومه هجاء مقذعا ، وإن كنت أراه غير موفق فى محاولاته المستمرة الإزراء بالخصوم ، وتحقير شأنهم ، فإنه بذلك أحاط نفسه بدائرة من الحقد والغضب ، فكثر حساده وشانئوه مما كان سببا فى طول أمد محنته .

ثالثها : أنى فى الاعتذار بالمعانى الدقيقة التى مامرت قط بخاطر جاهلى ولامخضرم ولا إسلامى . وكأن يأخذ المعنى الواحد ويولده ، ويصرفه فى وجوه متعـــددة ، نلمس ذلك بالنظر فى داليته الشهيرة[1] ، ولاميته التى قالها فى « الشاذياخ » عقب صلبه عريانا[2] .

رابعها : صدق التجربة ، فاعتذاراته تعبير عن عالمه النفسى ، بعيدا عن التكلف والاختلاق .

خامسها : تبدو جل قصائد الاعتذار عنده مزيجا من الفكر والشعور ، لذا برزت فيها وحدة الموضوع من جهة ، والوحدة العضوية من جهة ثانية ، يتجلى ذلك بوضوح فى القصيدة الدالية ، التى جاءت بناء متكاملا ، تسلسلت معانيه فى وعى . وتحقق الوحدة العضوية فى قصيدة مالبس أمرا هينا ، إذ يستلزم أن يفكر الشاعر تفكيرا طويلا فى منهج قصيدته ، وفى الأثر الذى يريد أن يحدثه فى سامعيه ، وفى الأجزاء التى تتدرج فى إحداث هذا الأثر بحيث تتمشى مع بنية القصيدة بوصفها وحدة حية »[3] . وهـــذا دليل

(١) انظر : الديوان ص ١٤١ .
(٢) الديوان ص ١٧١ .
(٣) النقد الأدبى الحديث - لمحمد غنيمى هلال ص ٣٩٥ ط نهضة مصر ١٩٧٣م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جديد على أن المحن المتعاقبة لم تستر عقله ، ولم تحل بينه و بين التفكير العميق.

سادسها : تتآزر اعتذاراته فى رسم تجربة متكاملة عاشها الشاعر ، يتجلى ذلك لمن ينعم النظر فى اعتذاراته ، ويضم بعضها إلى بعض ؛ إذ يرى الشاعر يبدأ حياة الحبس مستخفا بالمحنة ، يرى القيد زينة الرجال ، ويتفنن فى تحسين السجن وإطرائه ، ويهجو أعداءه على الرغم مما يعرفه عنهم من دهاء أفسح لهم فى مجالس المتوكل . ومع طول مكثه فى السجن يلين بعد جماح ، فيمدح الخليفة ، ويحاول استرضاءه ، ويلمح إلى ماحل به . ويجد اليأس طريقه إلى نفسه ، لكنه ظل يقاوم دواعيه كلما ألحت عليه ، ومن ثم وجدنا إيقاع الفخر المستعلى تخالطه نغمات الأسى المكبوت ، وأمام إصرار « المتوكل » على موقفه منه ، لم يجد بدا من التصريح بما يعانيه والتخلى عن كثير من اعتداده بنفسه ، وإظهار الضراعة الخاشعة للخليفة .

سابعها : اختار ألفاظه بدقة متناهية ، وعنى بحسن ترتيبها ، وجمال مواقعها . ولم يك معنيا باختيار اللفظة لمجرد دلالتها المعجمية فحسب ، بل لما تعطى من إيحاءات تفصح عما تموج به نفسه من أحاسيس .

بين على بن الجهم وعدى بن زيد العبادى :

روى صاحب الأغانى عن أبى الشبل البرجمى قوله : «ماشعر على بن الجهم فى الحبس بدون شعر عدى بن زيد»(١) .

هذه المقولة دفعتنى إلى النظر فى ظروف حبس « عدى » وفيما خلف من شعر الاعتذار ، فوجدت كلا الرجلين كان عزيزا فى قومه ، ومن ثم يستشعر العزة والإباء . وكلاهما كان ذا مكانة أثيرة لدى صاحبه ، وله عليه دالة ، فعدى حظى بمكانة مرموقة ونفوذ كبير فى بلاط .

---

(١) الأغانى ١٠/٢٠٨ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« النعمان بن المنذر » ، وكذلك كان « على » فى بلاط « المتوكل » . وكلاهما تقلب فى أعطاف النعيم ، ثم أودت الوشايات المغرضة بنعيمه وجاهه . وكلاهما حبس ، وقيد فى الحبس ، وطال حبسه .

وإذا كان عدى « يحرص على ود لا على عطاء ، ويأمل ألا ينال خصومه منه ويشمتوا به »[١] فإن « عليا » كان كذلك أيضا . ومن ثم جاءت اعتذارات كليهما تعبيرا عن عالمه النفسى ، بعيدا عن تزييف العواطف رغبا أو رهبا .

لكن النظرة المتأنية إلى حصاد الحبس فى شعر كليهما تفصح عن أمور :

أولها : يعد « عدى » الرائد الأول لفن الاعتذار فى الشعر العربى[٢] ، لكن « عليا » وفق فى ابتكار كثير من المعانى التى لم ترد على خاطر « عدى » ولا من لحق به ممن جروا فى هذا المضمار ، يتجلى ذلك لمن ينعم النظر فى اعتذاراته عامة ، وفى داليته الشهيرة على وجه الخصوص[٣] ، وتبلغ أبياتها ثمانية وعشرين بيتا ، وجل معانيها مبتكر ، لذا تعد من لطائف قصائد الاعتذار فى الشعر العربى على امتداد عصوره وتنائى دياره . وقد عقب الأستاذ خليل مردم - طيب الله ثراه - على مقولة « البرجمى » تلك بقوله : « على أن مقطعا واحدا من قصيدة ابن الجهم - يقصد الدالية - خير من كل ماقاله عدى بن زيد من الشعر »[٤] .

وإذا كانت المعانى تقسم ضربين : « ضرب يبتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له إمام يقتدى به فيه أو رسوم قائمة فى أمثلة عائلة يعمل عليها ، وهذا

---

(١) مجلة المنهل - العدد ٤٤٢ ص ٨٦ الاعتذار فى الشعر العربى د/إبراهيم عوضين .

(٢) ذاته ص ٨٤ ، عدى بن زيد العبادى - الشاعر المبتكر - محمد على الهاشمى ص ١٣٠ .

(٣) انظر : الديوان ص ٤١ (٤) مقدمة الديوان ص ٢٥ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الضرب ربما يقع عند الخطوب النازلة الطارئة ، والآخر ما يحتذيه على مثال تقدم ورسم فرط »[1] فإن عليه له - بالإضافة إلى معانيه المبتدعة - معان تقفى فيها أثر سابقيه ، لكنه وفق فى إجادة العرض وحسن التصوير ، وقد أشرت إلى ذلك فيما أسلفت ، ومن ثم أقول : إله كلا معنييه المبتدع والمحتذى يضفى عليه سمة الشاعرية المبدعة .

ثانيها : عنى « على » بانتقاء الكلمات ذات الإيحاءات التى تحمل فيضا من مشاعره إلى المتلقين ، وعن نفسه أيضا فى وضعها الوضع الملائم ، لذا جاءت اعتذارائه - شأنها شأن شعره كله - محكمة النسج ذات رنين موسيقى أخاذ ، وتلك خاصية لم تحرمها اعتذارات « عدى » ، لكنها تظهر على استحياء ، أما عند « على » فهى بلقاء .

ثالثها : جاءت قصيدة الاعتذار عند « عدى » مجموعة من الخواطر المبعثرة ، والأفكار المتناثرة ، أما عند « على » فجاءت بناء متسقا عمل فيه الفكر والشعور عملهما ، ومن ثم وجدنا اعتذارات « على » تكون تجربة متكاملة كما أسلفنا ، وذلك غير متحقق فى اعتذارات « عدى » .

رابعها : برز « على » فى افتتاح قصائد الاعتذار وخواتيمها ، إذ جاءت افتتاحاتها رشيقة دالة على ما يرمى إليه ، أما خواتيمها فجاءت مضمنة من المعانى ما يشعر بأنها الغاية والنهاية . فها هو ذا مطلع أولى قصائده فى الحبس :

توكلنا على رب السماء ... وسلمنا لأسباب القضاء
ووطنا على غير الليالى ... نفوسا سامحت بعد الإباء
وأفنية الملوك محجبات ... وباب الله مبذول الفناء
فما أرجو سواه لكشف ضرى ... ولم أفزع إلى غير الدعاء

وهو مطلع ينبىء عن المحنة ، وينبىء كذلك عن صمود الشاعر فى مواجهتها ، بل ويفصح عن سر هذا الصمود ، وذلك كله فى لفظ جزل ، ونسج محكم ، وعبارات خفيفة على السمع .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد ختم القصيدة نفسها بقوله :

أنا المتوكلى هـوى ورأيا ... وما بالواثقية من خفاء
وما حبس الخليفـة لى بعار ... وليس بمؤيسى منه التنائى

وهى خاتمة تشير إلى براعة الشاعر وتلطفه ، وتشعر بأنها نهاية المطاف .

وجاء مطلع داليته شاهد تمكن واقتدار ، وإباء واستعلاء :

قالت حبست فقلت ليس بضائر ... حبسى وأى مهند لايغمـد ؟
أو ما رأيت الليث يألف غيله ... كبرا وأوباش السباع تردد

وقد ختمها بقوله :

فبأى ذنب أصبحت أعراضنا ... نهبا يشيد بها اللئيم الأوغد ؟

وهى خاتمة تشعر بما يعتمل فى نفسه من أسى ، وتميط اللثام عن بواعثه ، وهى إطلاق « المتوكل » ألسنة ندمانه تفشى كل مكروه عن « ابن الجهم » الغائب ، وتوجز فى براعة بارعة ما فصله الشاعر فى ثنايا قصيدته . وهذا منحى « ابن الجهم » فى افتتاح اعتذاراته وخواتيمها .

أما « عدى » فيستهل أولى قصائده فى الحبس بقوله(١) :

ليت شعرى عن الهمام ويأتيـ ... ـك بخبر الأنباء عطف السؤال
أين عنا إخطارنا المال والأنـ ... ـفس إذ ناهدوا ليوم المحال
ونضالى فى جنبك الناس يرمو ... ن وأرمى وكلنـا غير آل
فأصيب الذى تريد بلاغش ... وأربى عليهم وأوالى
ليت أنى أخذت حتفى بكفـ ... ـى ولم ألق ميتة الأقتال

وهو مطلع لايشير بدقة إلى المغزى الذى قصد إليه الشاعر ، ولا يبدى صلابة مراسه فى مواجهة المحنة كما تبديه مطالع « على بن الجهم » وفيه لون من

---

(١) الأغانى ٢/١١٠ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المن لايخاطب به أرباب النعم ، فإن المن - كما يقال - أخو المن . وليس لأسلوبه من جودة السبك وإحكام النسج مالأسلوب مطالع « على بن الجهم » .

خامسها : لجأ « عدى » فى اعتذاراته إلى تذكير « النعمان » بتقلبات الأيام ، وبمصارع الغابرين أرباب الجاه ، الذين كانوا ملء السمع والبصر ، ثم بادوا وتبدد جاههم سريعا :

أبا شريح فلا تحزنك عثرتنا ... فالمرء رهن لريب الدهر والحمم
إن الأسى قبلنا جم، ونعلمه ... فيما أزيل من الأجداد والأمم
منهم رأيت عيانا أو تحدثه ... وما تنبأ عن عاد وعن إرم
وقبل ذلك من ملك ومغبطة ... بادوا فكانوا كفيء الظل والحلم

وليس هذا خطاب الملوك فى مقام تطييب نفوسهم ، واستلال موجدتهم ، إذهو أدعى إلى التطير وامتطاء صهوة العناد . وإنما تستل الموجدة بما يرقق القلوب ، مثل قول « على بن الجهم » فى مقام الاعتذار للمتوكل :

أنا المتوكلى هوى ورأيا ... وما بالواثقية من خفاء
وما حبس الخليفة لى بعار ... وليس بمؤيسى منه التنائى

ويخاطب الملوك بمثل قوله أيضا :

صبرا فإن الصبر يعقب راحة ... ويد الخليفة لاتطاولها يد

وبمثل قوله أيضا :

إن الذين سعوا إليك بباطل ... أعداء نعمتك التى لا تجحد
شهدوا وغبنا عنهم فتحكموا ... فينا وليس كغائب من يشهد

وابن الجهم حين يلجأ إلى ماالجأ إليه « عدى » ، فإنه يلمح ولا يصرح ، إذ يقول :

للدهر إقبال وإدبار ... وكل حال بعدها حال
وصاحب الأيام فى غفلة ... وليس للأيام إغفال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهذه كلها تشهد « لابن الجهم » بالبراعة [والفطنة ، وأنه لا يقف مع « عدى » على قدم المساواة فحسب ، بل بزه وتفوق عليه] .

سادسها : ظل « ابن الجهم » - على الرغم من تعاقب المحن عليه - ثابت الجنان ، وكلما تلمح عليه دواعى اليأس يستجمع قواه ، ويشحذ همته ، ويستحث نفسه على الصمود والتحدى . يتجلى ذلك فى كل ما قاله فى الحبس .

أما « عدى » ، وقد خانه جلده ، وتخلت عنه رباطة الجأش عند أول طارقة ، فهاهو ذا يقول فى أولى قصائده فى الحبس :

ليت أنى أخذت حتفى بكفى ولم ألق ميتة الأقتال
محلوا محلهم لصرعتنا العا م فقد أوقعوا الرحا بالثقال
ما رجائى فى اليافعات ذوات الـ هيج أم ما صبرى وكيف احتيالى(١)

فهو جزع ، يرى الحبس ميتة ذميمة بيد أعدائه الذين سعوا به لدى « النعمان » ، حتى أصابوا مقاتله ، والبيت الأخير شاهد صدق على تسرب اليأس إلى نفسه ، فهو لم يعد قادرا على الصمود فى وجه هذه المحنة العاتية ، وكيف يرجو التخلص منها وهى على هذه الحال من القوة والفورة ؟ ذلك - فى تصور الشاعر - أمر جد بعيد ، توحى بذلك هذه الاستفهامات اليائسة . ووصف « اليافعات » بـ « ذوات الهيج » يدعم ما ذهبنا إليه .

أين هذا كله مما جاء فى همزية « ابن الجهم » من ضروب التجلد والصمود ، وهى أول ما قال فى الحبس ؟

توكلنـا على رب السماء وسلمنـا لأسباب القضاء
ووطنا على غير الليالى نفوسا سامحت بعد الإباء
وأفنية الملوك محجبات وباب الله مبذول الفناء
فما أرجو سواه لكشف ضرى ولم أفزع إلى غير الدعاء

---

(١) قال ابن الأعرابى : اليافعات من الأمور ما علا منها . اللسان (يفع) . الهيج . الفورة والغضب .

جلبنا الدهر أشطره ومرت بنا عقب الشدائد والرخاء
فلم نأسف على دنيا تولت ولم نسبق إلى حسن العزاء
ولم نفدع الحيـــاء لمس ضر وبعض الضر يذهب بالحياء

ويقيد « ابن الجهم » فى حبسه ، فلا يضعف بل يتعالى على المحنة ، ويرى القيد زينة له ، كما تزين الخلاخيل النساء :

فلا تجزعى إما رأيت قيوده فإن خلاخيل الرجال قيودها

أما « عدى » حين يقيد يضعف ويستكين ، ويتسرب اليأس إلى نفسه ، ويقول :

أحظى كان سلسلة وقيدا وغلا والبيـان لدى الطبيب (١)

ويقول أيضا يشكو القيد (٢) :

أبلغـا عامرا وأبلـغ أخاه أننى موثق شديد وثاق
فى حديد القسطاس يرقبنى الحا رس والمرء كل شىء يلاقى
فى حديد مضاعف وغلول وثياب منضحات خـــلاق

ويبلغ الجزع به كل مبلغ ، فيصور نساءه بعد حبسه قد أقمن عليه مأتما وعويلا ، يبكينه ملتاعات لا يرقأ لهن دمع ، ولا يهدأ لهن فؤاد ، ويقول مخاطبا النعمان :

أتاك بأننى قد طال حبسى ولم تسأم بمسجون حريب
وبيتى مقفـــر إلا نساء أرامل قد هلكن من النحيب
يبادرن الدموع على عدى كشن خانه خرز الربيب

والمتتبع لاعتذارات « عدى » يلمس — فى مواطن متعددة — أن اليأس

---

(١) الأغانى ٢/١١٢ ط دار الكتب .
(٢) ذاته ص ١١٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قد ضعضعه ، أما « ابن الجهم » فقد قاوم اليأس ، وظلت نفسه الأبية تحول بينه وبين الضعف فى مواجهة المحنة التى نالت من صلابة مراسه أحيانا .

وبعد تلك الجولة فى شعر الاعتذار عند « على بن الجهم » ندرك أن لديه قدرة إبداعية فى فن الاعتذار تفرد بها ، قدرة تعطى الباحثين عطاء جديدا وتغذى قنوات البحث بروافد غنية وأشكال جديدة ، وصور معجبة . وتضع « ابن الجهم » فى طليعة شعراء الاعتذار .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المصادر والمراجع

- أعلام الكلام لابن شرف القيرواني ط مصر .
- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني :
  ج ١٠ طبع بيروت .
  ج ٢ ط دار الكتب .
  ج ٢٢ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- تاريخ اليعقوبي ط بيروت .
- ديوان أبي تمام ج ١ تحقيق محمد عبده عزام ط دار المعارف ١٩٦٤ م .
- ديوان علي بن الجهم - تحقيق خليل مردم ط ٢ بيروت .
- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ط عيسى الحلبي .
- طبقات الشعراء لابن المعتز ط دار المعارف .
- عدي بن زيد العبادي الشاعر المبتكر - لمحمد علي الهاشمي ط سورية ١٩٦٧ م .
- العفو والاعتذار - لمحمد بن عمران العبدي - تحقيق عبد القدوس أبو صالح - ط الرياض ١٩٨١ م .
- علي بن الجهم - حياته وشعره لعبد الرحمن الباشا ط دار المعارف .
- العمدة لابن رشيق - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط بيروت .
- الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٧ ط بيروت .
- مجلة المنهل - العدد ٤٤٢ مقال : الاعتذار في الشعر العربي د / إبراهيم عوضين .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- مروج الذهب للمسعودى ط. دار الفكر - بيروت .
- معجم البلدان لياقوت الرومى ط. بيروت .
- معجم الشعراء للمرزبانى ط. بيروت .
- النقد الأدبى الحديث د/ محمد غنيمى هلال ط نهضة مصر ١٩٧٣ م .
- وفيات الأعيان لابن خلكان تحقيق د/ إحسان عباس ط. بيروت .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فهرس الموضوعات

ص	الموضوع
٣	المقدمـــة
٥	السرى الرفاء : نظرات ونقدات . بقلم الأستاذ الدكتور محمود محمد لبدة
٢١	حول الملاحظات البلاغية فى صدر الإسلام . بقلم الدكتور الوصيف هلال الوصيف
٤١	الإبداع الفنى فى حكم ابن عطاء الله السكندرى . بقلم الدكتور أحمد حسن عطوة الغندور
٧١	صيانة الأعراض فى ضوء القرآن والسنة . بقلم الدكتور محمود النقراشى السيد على
٩٩	خيار المجلس بين الشريعة والقانون . بقلم الدكتور سعد الدين مسعد هلالى
١١٧	الشعر وبناء القيم الإنسانية . بقلم الأستاذ الدكتور محمود محمد لبدة
١٤٣	مزاعم التجديد فى النحو العربى . بقلم الدكتور محمد أبو المكارم قنديل
١٩٣	الاعتذار فى شعر ابن الجهم بقلم الدكتور عبد الرحمن محمد هيبة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رقم الايداع ٦٣٢٧/١٩٨٨

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner